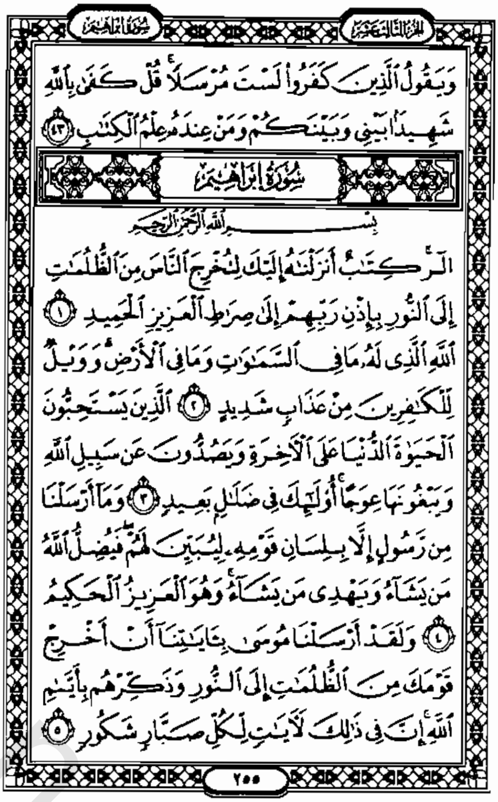
الجزء الثالث عشر سورة إبراهيم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ
اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٢٥٥

معانى الكلمات :

بإذن ربهم : بأمره أو بتيسيره وتوفيقه لهم .

العزيز : الغالب أو الذى لا مثل له .

الحميد : المحمود .

ويل : هلاك أو حسرة أو واد فى جهنم .

تستحبون : يختارون ويفضلون .

يبغونها عوجا : يطلبونها ذات اعوجاج .

بلسان : بلغة .

بأيام الله : ما أصاب به الأمم السابقة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم وظيفة الرسول ﷺ ومن قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ ـ أن نؤمن أن الله ـ تعالى ـ هو المالك لما فى السموات والأرض .

٣ ـ أن نتعرف على أيام الله تعالى فى الأمم السابقة .

المحتوى التربوى :

يختم الله عز وجل سورة الرعد بحكاية إنكار الكفار للرسالة ، وقد بدأها بإثبات الرسالة ، فيلتقى البدء والختام ، ويشهد الله مكتفيا بشهادته ، وهو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب ، وتنتهى السورة وقد طوفت بالقلب البشرى فى أرجاء الكون وأرجاء النفس ، وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله والتى يحسم بها كل جدل ، وينتهى بعدها كل كلام .

سورة إبراهيم .

هذه السورة مكية ، موضوعها الأساس هو موضوع السور المكية الغالب : العقيدة فى أصولها الكبيرة : الوحى والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

opeikandi.com

فهذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف التى بدئت بها هذه السورة ، ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ ﴾ لم تنشئه أنت ، أنزلناه إليك لغاية : لتخرج هذه البشرية ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ، ظلمات الوهم والخرافة ، وظلمات الأوضاع والتقاليد ، وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة ، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين ؛ لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور ، النور الذى يكشف هذه الظلمات ، يكشفها فى عالم الضمير وفى دنيا التفكير ، ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد ، والإيمان بالله نور يشرق فى القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشرى .

يقول صاحب الظلال : « والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق ، ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب ، غبش الأوهام وضباب الأطماع ، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار ، والإيمان بالله نور تشرق به الحياة ، فإذا الناس كلهم عباد متساوون ، تربط بينهم آصرتهم فى الله ، وتتمحض دينونتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة ، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة ... والإيمان بالله نور ، نور العدل ، ونور الحرية ، ونور المعرفة ، ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته فى السراء والضراء ... والإيمان بالله وحده إلها وربا ، منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير ، وتسكب فيه النور ، منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد والاستعلاء على حاكمية العبيد » .

وليس فى قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان ، أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التى اقتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول ، فالله هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم إلى صراط العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق فى خبره ، والله عز وجل مالك ما فى السموات وما فى الأرض ، الغنى عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه .

ويمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد ، جزاء كفرهم هذه النعمة ، نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويقدمونها ويؤثرونها عليها ،ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة ، وتركوها وراء ظهورهم ، ويصدون عن سبيل الله واتباع الرسل ، ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ، وهى مستقيمة فى نفسها ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد عن الحق ، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح .

ولكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة ، وقد أرسل النبى ﷺ بلسان قومه ـ وإن كان رسولا إلى الناس كافة ـ لأن قومه وهم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر ،

وعمره ﷺ محدود ، وتنتهى مهمة الرسول ـ كل رسول ، عند البيان ، أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال فلا قدرة له عليه ، إنما هو من شأن الله ، وهو القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير .

وكذلك كانت رسالة موسى بلسان قومه ، والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى ، والصادر لمحمد عليهما صلاة الله وسلامه ـ فإذا الأمر هناك ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ و ، الأمر هنا ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة،ولكن الغاية واحدة ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ .

وكل الأيام أيام الله ، ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التى يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ، كما سيجىء فى حكاية تذكير موسى لقومه ، وقد ذكرهم بأيام لهم ، وأيام الأقوام : نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، فهذه هى الأيام .

قال القاسمى : « أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط ، ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ؛ لأنها تعظم بها الأيام ، وقيل : أيامه نعماؤه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلا لها ، وقيل : هى أعم من النعماء والبلاء ، والوجه الأول أولى فيما أراه لاختصاص كل آية بمقام » .

وقال ابن كثير : ﴿ بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم » .

وفيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبرة لكل صبار فى الضراء ، شكور فى السراء .

وفى هذه الأيام ما هو بؤس فهو آية للصبر ، وفيها ما هونعمى فهو آية للشكر ، والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ، كما يجد فيها تسرية وتذكيراً .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربوياً :

١ ـ رسالة كل رسول كانت خاصة بقومه ، أما رسالة محمد ﷺ فهى رسالة عامة للعالمين إلى يوم القيامة .

٢ ـ أثر القرآن الكريم والرسول ﷺ فى إخراج الناس مما كانوا فيه من الضلال إلى الهدى .

٣ ـ الله سبحانه وتعالى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث بأمره تعالى .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

معانى الكلمات :

يسومونكم : يذيقونكم ويكلفونكم .

يستحيون نساءكم : يستبقون بناتكم للخدمة .

بلاء : ابتلاء واختبار بالنعم والنقم .

تأذن : أعلم إعلاما لا شبهة معه .

نبأ : خبر .

فردوا أيديهم فى أفواههم : عضوا على أصابعهم .

فاطر : خالق ومبدع ومخترع .

بسلطان : بحجة وبرهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف دعا موسى قومه وكيف ندعو الناس .

٢ ـ أن نؤمن بوعد الله تعالى بالمزيد من النعم لمن شكر نعم الله عليه .

٣ ـ أن نعرف من قصص الغابرين ففيه هداية لمن أراد أن يستقيم .

المحتوى التربوى :

راح موسى يؤدى رسالته ، ويذكر قومه ، يذكرهم بنعمة الله عليهم ، نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوما ، أى يوالون به ويتابعون ، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع ، ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم ، فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر لتشكر .

وفى هذا بلاء بالعذاب أولاً لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان ، وإلا فما هو صبر مشكور ، ذلك الاستسلام للذل والهوان ، وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى فى مقابل النجاة .

ويمضى موسى فى البيان لقومه ، بعدما ذكرهم بأيامه ، ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة ، وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة ، يمضى ليبين لهم ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران .

يقول صاحب الظلال : « نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق ، فلابد أن يتحقق على أية حال ، فإذا أردنا أن نرى مصداقها فى الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيراً فى تلمس الأسباب ، إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس فى النفس البشرية ، فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعى فى الفطرة المستقيمة ، هذه واحدة والأخرى أن النفس التى تشكر الله على نعمته ، تراقبه فى التصرف بهذه النعمة بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق،وبلا استخدام للنعمة فى الأذى والشر والدنس والفساد، وهذه وتلك مما يزكى النفس ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح فى النعمة بما ينميها ويبارك فيها ، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عونا ، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات فى أمان » .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها ، أو بإنكار أن الله واهبها ، والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة عينا بذهابها ، أو سحق آثارها فى الشعور ، وقد يكون عذابًا مؤجلا إلى أجله فى الدنيا أو فى الآخرة كما يشاء الله ، ولكنه واقع ؛ لأن الكفر بنعمة الله لا يمضى بلا جزاء ، وذلك الشكر لا تعود على الله عائدته ، وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره ، فالله غنى بذاته محمود بذاته ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها، فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

ويستمر موسى فى بيانه وتذكيره لقومه ، ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات ، وهذا التذكير من قول موسى ، ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر فى عرض قصة الرسل والرسالات فى جميع أزمانها ، قصة الرسل والرسالات وحقيقتها فى مواجهة الجاهلية ، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان .

وهنا نشهد الرسل الكرام فى موكب الإيمان يواجهون البشرية متجمعة فى جاهليتها حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها ، والرسل كثير ، وهناك غير من جاء ذكرهم فى القرآن ما بين ثمود وقوم موسى ، والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة فى دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به ، وقد جاؤوا قومهم بالبينات الواضحات التى لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم ، فردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه ، وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التى لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعانا منهم فى الجهر بالكفر .

ولما كان الذى يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده ، فإن الشك فى هذه الحقيقة الناطقة التى تدركها الفطرة ، وتدل عليها آيات الله المبثوثة فى ظاهر الكون المتجلية فى صفحاته، يبدو مستنكراً قبيحا ، وقد استنكر الرسل هذا الشك ، والسموات والأرض شاهدان .

وقالت رسلهم : أفى الله شك والسموات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما إبداعا ، وأنشأهما إنشاء ؟ قالت رسلهم هذا القول ؛ لأن السموات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، فمجرد الإشارة إليهما يكفى ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئًا ؛ لأنها وحدها تكفى ، ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر فى دعوتهم إلى الإيمان ، وفى إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ، ويتقون العذاب .

والدعوة أصلًا دعوة إلى الإيمان المؤدى إلى المغفرة ، ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة ؛ لتتجلى نعمة الله ومنته وعندئذ يبدو عجيبًا أن يدعى قوم إلى المغفرة ، فيكون هذا تلقيهم للدعوة فهو لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب ، إنما يمن عليكم منة فيؤخركم إلى أجل مسمى ، إما فى هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم ؛ وهى رحمة وسماحة تحسبان فى باب النعم،فهل هذا هو جواب دعوة الرحيم المنان ؟!

وهنا يرجع القوم فى جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول بأنهم بشر مثلهم ، وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة فى الرسل المختارين ، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة فى تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم ، ولا يسألون أنفسهم لماذا يرغب الرسل فى تحويلهم ؟! وبطبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات فى العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم : ما قيمته ؟ ما حقيقته ؟ ماذا يساوى فى معرض النقد والتفكير ؟! وبطبيعة الجمود العقلى كذلك لا يفكرون فى الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق، وآية تدلهم على فضل الأنبياء عليهم بالنبوة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إنكار نعم الله ، وعدم شكره عليها كفر بالنعم يشبه الكفر بالله ـ عز وجل .

٢ ـ شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه يزيدها ويحفظها .

٣ ـ اختبار الله ـ تعالى ـ لعباده يكون بالحسنات والطيبات والنعم ، كما يكون بالسيئات والمحن والشدائد .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

معانى الكلمات :

يمّن : يتفضل .

ملتنا : ديننا .

استفتحوا : طلب الرسل من الله النصر .

خاب كل جبار : خسر وهلك كل متعاظم متكبر .

عنيد : معاند للحق ، مخالف له .

صديد : ما يسيل من أجساد أهل النار .

يتجرعه : يحاول بلعه بصعوبة .

يسيغه : يبتلعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف ما كان أهل الكفر يقابلون به رسل الله والدعاة إليه ـ سبحانه ، وما كانت الرسل ترد به عليهم .

٢ ـ أن نستشعر وجوب التوكل على الله ـ تعالى ، وعدم صحة التوكل على غيره .

٣ ـ أن نعلم خيبة وخسران عامة أهل الشرك والكفر والظلم .

المحتوى التربوى :

يرد الرسل فلا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله فى اختيار رسل من البشر ، وفى منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى ، وهى منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم ، ولكن كذلك على البشرية التى تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى ـ مهمة الاتصال والتلقى من الملأ الأعلى ، وهى منة على البشرية بتذكير الفطرة التى ران عليها الركام ؛ لتخرج من الظلمات إلى النور ، ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقى ، فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المنفتحة ثم هى المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة

للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ، واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد فى الدينونة للعبيد،الذل الذى يحنى هامة إنسان لعبد مثله ، والتبدد الذى يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله .

فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله ؛ ليفرقوا فى مداركهم بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية .

ويطلق الرسل حقيقة دائمة بأنهم ما يعتمدون على قوة غير قوته ـ تعالى ، فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يتلفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونا إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ، ويسألون للتقرير والتوكيد : ما الذى لا يجعلنا لا نتوكل على الله وهو الذى هدانا إلى سواء السبيل ؟ إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه، المالئ يديه من وليه وناصره ، المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر وأن يعين ، وماذا يهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر ؛ إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

يقول صاحب الظلال : « والقلب الذى يحس أن يد الله ـ سبحانه ـ تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله،لا يخطئ الشعور بوجوده ـ سبحانه ـ وألوهيته القاهرة المسيطرة، وهو شعور لا مجال معه للتردد فى المضى فى الطريق ، أياً كانت العقبات فى الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التى تتربص فى هذا الطريق ، ومن ثم هذا الربط فى رد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ـ بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه فى مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ، ثم إصرارهم على المضى فى طريقهم فى وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة ؛ حقيقة الارتباط فى قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله لهم وبين بديهية التوكل عليه ـ لا يستشعرها إلا القلوب التى تزاول الحركة فعلاً فى مواجهة طاغوت الجاهلية ، والتى تستشعر فى أعماقها يد الله ، وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد ؟! » .

ولنصبرن : لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه ، لا يجادل ولا يناقش ، ولا يفكر ولا يتعقل ؛ لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة ، وهنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية ، والجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها ، لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا فى ملتهم ، وأن يذوبوا فى مجتمعهم ، فلا يبقى لهم كيان مستقل ، وتتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة التى لا تقف لها قوة البشر المهازيل ـ وإن كانوا طغاة متجبرين ؛ ليتمكن المؤمنون فى الأرض ، وليتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين ولنهلكن الظالمين .

وهذا الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقام الله ، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر ، وخاف وعيده، فحسب حسابه، واتقى أسبابه فلم يفسد فى الأرض، ولم يظلم فى الناس، ويقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة فى صف ، ويقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله ـ سبحانه ـ فى صف ، ودعا كلاهما بالنصر والفتح ، وكانت العاقبة كما يجب أن تكون من نصر الرسل وإنجاز الوعد لهم ، وخيبة أعدائهم من المتكبرين على طاعة الله وعبادته المعاندين للحق .

يقف الجبار العنيد فى هذا المشهد ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم ، يسقاه بعنف فيتجرعه ـ غصبا وكرها ، لا يكاد يبتلعه لقذارته ومرارته ، ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ؛ ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ، ومن ورائه عذاب غليظ .

وفى ظل هذا المصير يجىء التعقيب مثلا مصوراً فى مشهد يضرب الذين كفروا ، ولفتة إلى قدرة الله على أن يذهب المكذبين ويأتى بخلق جديد .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع به أصلا هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ فى تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا .

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار ، فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل الباعث ، وتصل بالباعث بالله مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام ، فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل ، فالعمل حركة آلية لا يفترق فيه الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

ويتفق التعقيب فى ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف إلى بعيد ، وفى توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أهمية الصبر والتوكل على الله فى جميع الأمور .

٢ ـ الجبارون المعاندون للحق يخذلهم الله يوم القيامة ويدخلهم جهنم .

٣ ـ لا ثواب فى الآخرة للكافرين على ما عملوا فى الدنيا ؛ لأنها على غير أساس الإيمان الذى تقبل به الأعمال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

معانى الكلمات :

بعزيز : بشديد .

برزوا : خرجوا من القبور للحساب .

مغنون عنا : دافعون عنا .

محيص : منجى ومهرب .

سلطان : تسلط أو حجة .

بمصرخكم : بمغيثكم ومخلصكم من العذاب .

كلمة طيبة : كلمة التوحيد .

فرعها : غصنها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله ـ تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن فى يوم القيامة لا يغنى أحد عن أحد ، ويتبرأ الكبراء الضالون ممن تبعهم .

٣ ـ أن نؤمن بحسن ثواب المؤمنين يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يقول ـ تعالى ـ مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ؛ بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس ، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبرارى وصحارى وقفار وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها قادراً على إعادة الخلائق مدة أخرى يوم القيامة للحساب ؟

يقول صاحب الظلال : « والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السموات والأرض ، هو انتقال طبيعى فى المنهج القرآنى ، كما أنه انتقال طبيعى فى مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج القرآنى .

إن بين فطرة الكائن الإنسانى وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة ، إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه . والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيحاءات هم أفراد معطلو الفطرة ، فى كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية ، كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها ، كما تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، واللسان بالبكم ، إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقى ، ومن باب أولى لا تصلح للقيادة والزعامة ... إن خلق السموات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يوحى بالثبات ، فالحق ثابت مستقر » .

وفى ضوء مصير المعاندين الجبارين فى معركة الحق والباطل يجىء التهديد باستخلاف جنس غير هذا الجنس فى الأرض ، واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس ، وما ذلك على الله بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره .

وانتقل السياق من الدنيا إلى الآخرة ، فالطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ومعهم الشيطان ، ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات .. وبرزوا جميعا مكشوفين ـ وهم مكشوفون لله ـ دائما ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ .

برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار : والضعفاء هم الضعفاء ، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة ، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله ، والضعف ليس عذرا ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله .

يقول صاحب الظلال : « إن المستضعفين كثرة والطواغيت قلة ، فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان ، إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ، فهى دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت ، فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان ، إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء ، وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة » .

وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة ، والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم : إن كنا لكم متابعين مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ؟ فَقالت القادة لهم : لو كان الله هدانا لهديناكم ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على

الكافرين ، فليس لهم خلاص مما هم فيه إن هم صبروا عليه أو جزعوا منه ، وهو رد يبدو فيه البرم والضيق فعلام تلموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد؟إننا لم نهتد ونضلكم، ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ، وقد حق علينا العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله ، لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هناك مفر ولا محيص .

وبعد ما قضى الله بين عباده ، يخبر ـ سبحانه ـ عما خطب به إبليس أتباعه من الكافرين فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ، حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : إن وعد الله كان حقا ، على ألسنة رسله ، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعدًا حقا وخبراً صدقا ، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ، ثم قال : وما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ إلا بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه فلا تلومونى اليوم ، ولوموا أنفسكم فإن الذنب لكم ، وما أنا بنافعكم ومنقذكم مما أنتم فيه ، وما أنتم بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب بسبب ما أشركتمونى من قبل ، والظالمون لهم بإعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل عذاب أليم ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتهم الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون بإذن ربهم، والملائكة تحييهم وتكرمهم بالسلام .

وفى ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، والمؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت كاملا حسنا ، ويضرب الله الأمثال ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه فى زحمة الحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القادر على الإيجاد قادر على الإفناء وقادر على الإحياء بعد الموت .

٢ ـ فى يوم القيامة يتبرأ الكبراء الضالون ممن تبعهم فى ضلالهم .

٣ ـ علينا الحذر من وسوسة الشيطان وتزيينه .

معانى الكلمات :

تؤتى أكلها : تعطى ثمرها الذى يؤكل .

كلمة خبيثة : كلمة الكفر والضلال .

اجتثت : اقتلعت .

دار البوار : دار الهلاك (جهنم) .

يصلونها : يدخلونها .

أنداداً : أمثالا من الأوثان .

لا خلال : لا صداقة ولا موادة .

دائبين : دائمين فى منافعهما لكم .

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

٢٥٩

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن كلمة الإيمان لها أثرها فى زيادة الأعمال .

٢ ـ أن نؤمن بأن فى القبر سؤالا ونعيما وعذابا .

٣ ـ أن نتعرف على بعض الدلائل على وجود الخالق ـ سبحانه .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيمثل كفر الكافر بأنه لا أصل له ولا ثبات ، وشبه بشجرة الحنظل وقد استؤصلت فلا أصل لها ولا ثبات ، كذلك كفر الكافر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شىء .

يقول صاحب الظلال : « إن الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق كالشجرة الطيبة ـ ثابتة سامقة مثمرة ، ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان وإن خيل إلى البعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان ـ سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ـ وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها فى الفضاء ـ مثمرة لا ينقطع ثمرها ؛ لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن .

obeikandi.com

وإن الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ كالشجرة الخبيثة ، قد تهيج وتتعالى وتتشابك ، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض ، وما هى إلا فترة ، ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء ، ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع ، إنما هو الواقع فى الحياة ، ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان ، والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق » .

ويضرب الله الأمثال للناس ، وهى أمثال مصداقها واقع فى الأرض ولكن الناس كثيراً ما ينسونه فى زحمة الحياة .

وفى ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة يتم تثبيت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة فى الضمائر،الثابتة فى الفطر المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقى فى الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ، وبوعده للحق بالنصر فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ، وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب ، ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم ، والله بإرادته المطلقة يفعل ما يشاء .

يقول القاسمى : « القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه ، وتثبيتهم به فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلّوا ، كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر » .

ويعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ﷺ بعدما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل ـ أولئك الذين أنعم الله عليهم ـ فيما أنعم ـ برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان ، أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك مثلهم مثل السادة من كل قوم ، وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم وأنزلوهم بها ، وبئس القرار فيها من قرار .

لقد استبدلوا بنعمة ودعوته كفراً ، وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها ، وجعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ، ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته ـ سبحانه ، جعلوا هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذى لا يتعدد ولا تتفرق به السبل .

يقول صاحب **الظلال** : « والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمداً إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخاذ هذه الأنداد من دون الله ، فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم فى كل زمان ـ لا فى زمن الجاهلية الأولى ، ولكن فى زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق فى أى صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحى الله ، عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة ... فيا أيها الرسول قل للقوم : تمتعوا قليلاً فى هذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله » .

والعاقبة معروفة فإن المصير إلى النار ، ودعهم وانصرف عنهم إلى عبادى الذين آمنوا انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة ، الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر ، انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله ، وقل لهم : أن يشكروا ربهم بإقامة الصلاة ، فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله ، وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق ـ سراً وعلانية ، سراً حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخراً وتظاهراً ومباهاة ، وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع ، وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال ، قل لهم : أن ينفقوا ليربوا رصيدهم المدخر من قبل أن يأتى يوم لا تنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال .

ويعدد ـ تعالى ـ نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا والأرض فراشا ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى ، ما بين ثمار وزروع ، مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجرى عليه بأمر الله ـ تعالى ؛ وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ، وسخر الأنهار رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع وسخر الشمس والقمر يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ، وسخر الليل والنهار يتعاقبان خلفه لمعاشكم وسباتكم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ كلمة الإيمان والتوحيد ثابتة فى قلب المؤمن ينتفع بآثارها فى حياته وعند مماته .

٢ ـ كل كلمة خبيثة لا يقبل من صاحبها عمل ، ويعجز عن الإجابة عند سؤال الملكين .

٣ ـ أهمية أداء الصلاة على الوجه الأكمل ، والإنفاق من نعم الله فى السر والعلانية .

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾

٢٦٠

معانى الكلمات :

لا تحصوها : لا تطيقوا عدها .

اجنبنى : أبعدنى ونجنى .

إنهن : الأصنام .

تهوى إليهم : تسرع إليهم شوقا ووداداً .

وهب لى : أعطانى .

تشخص فيه الأبصار : ترتفع دون أن تطرف من شدة الهول .

الأهداف ا لإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف بعض نعم الله علينا .

٢ ـ أن نعلم شيئا من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

٣ ـ أن نؤمن بأن الله لا يغفل عن أفعال الظلمة وإنها يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

المحتوى التربوى :

بعدما عرض السياق الخطوط العريضة فى صفحة الآلاء المديدة ، وأن فى كل خط من النقط ما لا يحصى ، وقد آتى الله عباده من كل ما سألوه من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ، ونعمة الله أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ـ أو كل البشر ـ وكلهم محدودون بين حدين من الزمان بدأ ونهاية وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان ، ونعم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان ، وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادًا ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا .

obeikandl.com

وحين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له إما مباشرة وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله معين بقدرة الله ذلول له بتسخير الله حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر ، لابد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع ـ دائما ـ إلى ربه المنعم : حين يكون فى الشدة ليبدله منها يسراً ، وحين يكون فى الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء إبراهيم ، ويأتى به السياق فى مشهد خاشع يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء فى نعمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء ، والسياق يصور إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله ، فيصوره فى هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ؛ ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ، ويرد الغافلين إلى الذكر ، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون .

ويبدأ إبراهيم دعاءه ، وقد دعا لمكة بالأمن ، ونعمة الأمن ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه ، والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها ، وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أنداداً ، وصدوا عن سبيل الله ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن أن يباعده الله ويباعد بنيه عن عبادة الأصنام .

ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه ، فهو يستعين بربه بهذا الدعاء ويستهديه ؛ ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله ، وإنما النعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده ، فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء ، يدعوا إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ، ومن فتنوا بها ، ومن افتتنوا وهم خلق كثير .

ثم يتابع الدعاء ، فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فهو منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ـ آصرة العقيدة ، وأما من عصانى منهم فأفوض أمره إليك ، وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته .

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها لماذا ؟ لإقامة

الصلاة ، فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان ، وأن يجعل وفوداً من الناس تأوى إليهم ، وأن يرزقهم من الثمرات فتجلبها إليهم التجار لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور من الشكر منهم لله .

ويعقب إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر ، فقد وهبه الذرية على حافة العمر ، وهبة الذرية على الكبر أوقع فى النفس ، فالذرية امتداد ، وما أجلَّ الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد ، وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته ، ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر ، الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صادق ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه ، ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ، ثم مغفرة الله فى تقصيره .

يقول صاحب الظلال : « نلمح تكرار إبراهيم عليه السلام فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة « ربنا »،أو «رب » فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزىً ، وإنه لا يذكر الله ـ سبحانه ـ بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية ، فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات ، إنما الذى كان موضع جدل هو قضية الربوبية ، قضية الدينونة فى واقع الحياة الأرضية ، وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان ... » .

ويكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله،ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ، والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التى لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها . أخذهم فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوته مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ نعم الله ـ تعالى ـ علينا كثيرة ، وفضله علينا عظيم .

٢ ـ أهمية الدعاء بالخير للنفس وللأهل ولجميع المسلمين ، ومشروعية الإلحاح فى الدعاء ، وإظهار التذلل لله تعالى .

٣ ـ المسلمون تحن قلوبهم شوقا إلى بيت الله الحرام واستجابة لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

معانى الكلمات :

مهطعين : مسرعين إلى الداعى بذلة .

مقنعى رؤوسهم : رافعى رؤوسهم .

هواء : خالية لا تعى .

مقرنين : مقرونا بعضهم مع بعض .

الأصفاد : القيود .

سرابيلهم : قمصانهم أو ثيابهم .

تغشى : تغطى .

بلاغ للناس : كفاية فى العظة والتذكير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال الظالمين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم حال المشركين مع رسول الله .

٣ ـ أن نؤمن بيوم القيامة وما فيه من مشاهد مفزعة .

المحتوى التربوى :

يرسم السياق مشهداً للقوم فى زحمة الهول ، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون إلى شىء ، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا ، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم ، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهى هواء خواء .

هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه ، والذى ينتظرهم بعد الإمهال هناك ، فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك ، ويتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون : ربنا الآن ، وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا ، ويطلبون الإمهال إلى أمد الزمان معلوم غير بعيد ، حتى يجيبوا دعوة التوحيد ويتبعوا المرسلين منه ـ تعالى ـ فيعملوا بما بلغوه من شرائع .

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب ، كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون ، وكأننا فى الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها ، فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم فى تلك الحياة فيقول : كيف ترون الآن ؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟ ! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلا بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم ، فهذا عجيب أن تروا مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء ، وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

يقول صاحب الظلال : « وإن هذا المثل ليتجدد فى الحياة ويقع كل حين فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم ، وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم ، ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ، ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ، فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التى يسكنونها ، والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين وتصور مصائرهم للناظرين ، ثم يؤخذون أخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين » .

ثم يلتفت السياق إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتدبيرهم الشر فى كل نواحى الحياة ، فيلقى فى الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير ، والله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأخير حتى ليؤدى إلى زوال الجبال ، أثقل شىء وأصلب شىء ، وأبعد شىء عن تصور التحرك والزوال ، فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا ، وليس بعيداً عن متناول القدرة ، بل إنه لحاضر عند الله يفعل به كيفما يشاء ، وما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر ، وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر ، فلا يدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو ، والظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله ـ تعالى ـ يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم تحقيقا لعدل الله فى الجزاء .

وهذا الجزاء سيكون لا محالة حاصلاً يوم تبدل الأرض وتكون على غير الصفة المألوفة المعروفة ، ولا ندرى نحن كيف يتم هذا ، ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التى تبدل الأرض وتبدل السموات ، فى مقابل ذلك المكر الذى مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير ، وفجأة نرى ذلك قد تحقق ، وأنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق ، ليسوا فى دورهم وليسوا فى قبورهم ، إنما هم فى العراء أمام الواحد القهار ، ولفظة القهار هنا تشترك فى ظل التهديد بالقوة القاهرة التى لا يقف لها كيد الجبابرة ، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولا أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت : فمشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين فى الوثاق ، يمرون صفا وراء صف ،

مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار، ويضاف إلى قرنهم فى الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهى فى ذات الوقت قذرة سوداء من قطران ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار ، فثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران ، وهو الذى تطلى به الإبل ، وهو ألصق شىء بالنار .

ويفعل الله بالمجرمين ما يفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت ، أو كل نفس من مجرمة ومطيعة سيجازيها لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم ، فسيثيب المؤمنين على طاعتهم ، والله ـ عز وجل ـ يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ، والسرعة فى الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم ، فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ـ ذلا وألما وسرعة حساب .

وفى النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن فى إعلان عام جهير الصوت على الصدى ؛ لتبليغ البشرية كلها فى كل مكان ، والغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هى يعلم الناس ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فهذه هى قاعدة دين الله التى يقوم عليها منهجه فى الحياة .

يقول **صاحب الظلال** : « وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم ، المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره ، فالإله هو الذى يستحق أن يكون ربا ـ أى حاكما وسيداً ومتصرفا ومشرعا وموجها ـ وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد ، وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء ، إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ، وليس مجرد عقيدة مستكنة فى الضمائر ، وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ شدة أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من فزع للكافرين والعاصين .

٢ ـ تحقيق وعد الله ـ تعالى ـ بنصرة أنبيائه ورسله والمؤمنين .

٣ ـ القرآن الكريم بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ، وفيه الهداية والدلائل على أنه لا إله إلا الله .